رحله الانتظار

محمد عبدالواحد

رحله الانتظار

محمد عبدالواحد

تصميم الغلاف : عبير محمد

تدقيق لغوي: عبدالله أبو الوفا

رقم ايداع: 11765/2019

ترقيم دولي: 978-977-6594-15-9



دار فصلة للنشر والتوزيع

العزيزيه - منيا القمح - مصر

٠١٠٦٧٠٠٠٧٠١

fasla.pub@gmail.com

www.Faslapub.Com

الطبعه الاولي اكتوبر ٢٠١٩



رحله الانتظار

محمد عبدالواحد



إهداء

إهداء إلى من أرضى الله بها فضولي لمعرفة صفات الملائكة، إلى من رذيلتها فضيلة، إلى منبع النسيم وسط أوار الحياة اللافح لكل جميل بداخلنا، إلى من تنير بروحي كل ما تعتمه ظروفي، إلى أمي.

رحلة الانتظار

"سأذهب يا بني لأشتري متطلبات البيت وأجلب لك دواءً أقوى؛ لعله يستطيع مقارعة صداعك الشرس". بصوت رقيق، لا يصعب على سامعه إدراك مدى حزن وبث صاحبه، شقت هذه الجملة ظلمة غرفة مغلق بابها ونافذتها الخشبية، يتسلل خلسة من بين درفها الرثة شعاع ضوئي يقع على وجه شاب في أوائل العشرينات مستلقي على سرير أسفل النافذة كالجثة الهامدة؛ لتنكشف جبهة عريضة وحاجبان مرتبان ورموش كثيفة وطويلة واقية لعين دعجة وأنف حاد وفم صغير ورقيق، وبالرغم من جمال هذا الوجه إلا أنه يشوبه نحافة شديدة، ولحية كثيفة غير منمقة، وشعر طويل جاف متداخل، وسواد قاتم أسفل العينين.

فتحت الأم الباب الداخلي للغرفة، واجتازت المنضدة المصفوف عليها عشرات الكتب بانتظام، ثم الأريكتين المتقابلتين حتى بلغت الكرسي بجوار السرير وجلست، ثم همست متنهدة: "حمدًا لله، غادر الصداع ليتركك تنام قليلًا قبل أن يأتي ويبيت في رأسك المفضلة إليه"، وبينما تتأهب للنهوض بالكاد لمحت دمًا على الحائط أسفل النافذة فانتحبت متلفظة:"ربي يهون عليك يا أحمد، ويرحمك من التفكير فيما يؤذيك".

قبل ثلاث سنوات.

في يوم مشرق بينما أحمد مسهبًا في سجوده دق الباب، حينما انتهى من صلاته نهض مسرعًا بعدما جفف عينيه المغرورقتين بالدموع، وتوجه صوب باب غرفته وعندما فتحه جمد مكانه حينما أبصر وجه سلمى الذي حين يراه يلج به الشوق لرؤية سيدنا يوسف الذي أُعطي شطر الحسن، وبعد ثوانٍ من جموده وابتسامتها تكلم متلعثمًا:"تفضلي بالدخول". دخلت وابتسامتها الرقيقة لم تفارق وجهها وجلست على إحدى الأريكتين وجثا هو على الأخرى، بدأت تسترسل في حديثها وهو محدق في عينيها اللتين تلألأتا حين سقط الضوء المنبعث من النافذة عليهما دون أن يلفت انتباهه شفتيها المتحركتين أو يديها الملوحتين، وبينما تستطرد تفوه قائلًا:"انتظرتك كثيرًا!"، فتوردت وجنتاها تمامًا كلون

حجابها، وسكنت يداها، وتوقفت شفتاها، فاستكمل:"هذه فترة عصيبة لن أستطيع اجتيازها دونك"، انبسطت أسارير وجهها ثم نهضت وتوجهت نحوه وجلست بجواره وقالت:"سأكون معك دائمًا"، ثم استطردت:"لم يكن أحد يتكهن تخليك عن مسؤوليتك، فالجميع كان يتوقعك في المقدمة".

-"لم أعرض عن مسؤوليتي بل قهرتني ظروفي، هذا كل ما أقوى على إخبارك به الآن".

قالت سلمى:

-"أتفهم ذلك، فليس كل ما بداخلنا يمكننا الإفصاح عنه، حتى إلى أقرب الناس إلينا، كما أن هذا ليس وقت سرد المشكلة، بل حان وقت الحل".

-"انتهت المشكلة بمجرد رؤيتك، فروحي المنهكة انتعشت وأصبحت تقوى على الاستفاقة من عثرتها".

أخرجت من حقيبتها علبة صغيرة متلفظة:"هدية يوم ميلادك"، فأخذها متعجبًا ثم فتحها وإذا بساعة سوداء لامعة بداخلها.

-"كيف علمتِ يوم ميلادي، وكذلك حبي للون الأسود؟"

قالت سلمى:

-"لا بد أن أرواحنا تتقابل خلسة".

-"إذن روحك أكثر تكتمًا من روحي، فأنا لا أعلم عنكِ الكثير".

تبسمت وقالت:"لا بد أن أغادر الآن"، ثم نهضت فتبعها هو الآخر، فأمسكت يديه وأطالت النظر في عينيه المرهقتين، ثم تلفظت:"أثق بك يا أحمد". فأنغض رأسه ملتزمًا الصمت.

بعدما غادرت ملأ إناءً بالماء، وعرج نحو غرفة صغيرة بجوار غرفته وما زال ممسكًا بالعلبة السوداء، حينما دخل الغرفة وجد حبات التراب قد تكالبت على أرضية الغرفة وأخفت ملامحها وما عليها من معدات رياضية، حتى أنها أتحدت مع خيوط العنكبوت في تشويه الجدران والسقف، لم يحرك ذلك لأحمد ساكنًا وتابع السير قاصدًا فتحة صغيرة بالجدار هي مصدر الضوء الوحيد للغرفة، حيث كانت تحوي أصيص لنبات الصبار، وضع العلبة السوداء على الأرضية ثم أمسك الأصيص وجلس القرفصاء، وأخذ يتكلم مع الصبار قائلًا:"أتدري لم اخترتك صديقًا؟ لأنك قوي، وأكثر النباتات جلدًا وصبرًا، وتحتمي بك كثير من الطيور، وكأن الله جعلك ملجأ لمن استضعفوا في الأرض، ولكن انظر لحالك الآن، بدأت بالذبول وتغضنت أجزاؤك وجفت تربتك ونفد صبرك، وتركك الجميع أسيرًا لظروفك، ولكن الآن يا صديقي ستُشيع الظمأ للأبد، وتسترد عافيتك وتقهر ظروفك".

طرق باب غرفة أمه برفق فداعب أذنيه صوتها الحاني بجملة: "ادخل يا أحمد"، بصرها جالسة على السرير تمسك مصحفًا أغلقته

ووضعته بجوارها حين دخل، جلس بجوارها فاحتضنته، فأحس سكينة وراحة، تيقن إنه لن يحس بهذا الشعور إلا حين يضم إلى صدر هذا الكائن الذي خلقه الله أكثر تطورًا من بقية البشر.
قال أحمد:
-"لن نرحل يا أمي هربًا من ظروفنا، سنمكث في موطننا الذي حفظنا ملامحه وحفظ ملامحنا، وأنا قادر على المواجهة".
-"هون على نفسك يا ولدي، فالمشكلة أبعادها كثيرة، إلى جانب ظروفنا السيئة بجوانبها المتشعبة لن تقدر على مواجهة بشر استسلموا لحقارة أنفسهم فيجرحوا من قهرته الحياة لمجرد تلذذهم بشعور الأفضلية، كما إن أقرب الناس إليك منهم من سيخذلك دون قصد، المقاتل الشجاع إذا حارب في أكثر من اتجاه في ذات الوقت هلك، فلا بد أن تبدأ حياة جديدة تستعيد فيها روحك رونقها مرة ثانية".
خرج من بين جناحي أمه واعتدل في جلسته ثم قال:"الفئران تشعر بأفضليتها على الصقور في امتلاكها أربعة أرجل لحين افتراسها، كما إنني لست مرغم على الهروب كي تنتعش روحي".
قالت الأم:
-"لن أحرمك المحاولة مرة ثانية، ولم لا والحياة ما هي إلا محاولة تبوء بالفشل وأخرى تكلل بالنجاح، كما إنني لا أحب خيلاء أهل

المدن".

ما أبهج ذات الخمسة عقود حقًا، ذلك اليوم ذهب ابنها لأداء صلاة العشاء حيث لم يكن يدلف إلى المسجد إلا لصلاة الفجر لخلو الطريق والمسجد وقتها من أناس يبتسمون بجانب وجوههم ابتسامة سخرية وتهكم، تلك الابتسامة التي كانت بمثابة سكين ثلم يمضي على رقبته.

لم يكن الشيخ جميل إمام المسجد سوى رجل أمي في السبعينات من عمره، له ما له وعليه ما عليه في شبابه، جل أعضائه اعتراها القصور عدا أذنيه، ولم لا وهما صاحبتا الفضل في حفظه القرآن كاملًا، بالرغم من تقابلهما فقط في صلاة الفجر إلا أنه نشب بينهما صداقة قوية، فكانا يتبادلان الحب الشديد والإجلال لبعضهما البعض، كان ملهمًا له ودائمًا يوصيه بدعوة لا ينبغي أن يسأل الله غيرها في الدنيا،"أعوذ بك من قهر الرجال".

توالت الأيام وكان لسلمى مفعول السحر عليه، فبدأت تمنحه ما ضنت به الحياة، وتنير ما تعتمه الظروف، حتى أتم مهمته وعاد إلى المقدمة كما كان ولكن...

هدوء تام يخيم على المكان، وظلمة حالكة لا تمكن المار من رؤية ما تحت قدميه، يتجلى تناقض الحياة في هذه المنطقة، حيث في نهايتها عند تلاقي طريقيها مدرسة مضاء جل مصابيحها، ليظهر

في محاذتها بناية من الطراز القديم يجلس أمامها على أريكة خشبية صغيرة مجردة من أي فرش رجل في الستينات من عمره، يكاد يكون شاربه أطول من قامته، يدخل مع النوم في معارك متتالية نتائجها محسومة قبل بدايتها، ولم لا وقد كادت رأسه أن تلمس فخذيه في كل جولة، أنفه وفمه يعزفان برتابة سيمفونية أنهاها من على بعد قرابة المائة متر صفير قطار منتصف الليل كما كان يطلق عليه.

أدخل أريكته وأوصد البوابة بعد استيقاظه مذعورًا من الصفير الذي كان بمثابة منبهًا لانقضاء فترة عمله كل يوم، ثم أخرج من جيب عباءته المتهالكة مظروفًا واعتلى السلم متجاوزًا غرفته البسيطة قاصدًا الطابق الثاني، وبعد ثوانٍ من فرقعة مفاصله بلغ مقصده، وبينما يهم بطرق الباب ارتطم بأذنيه حديث.

-"كيف لي أن أبدأ حياة جديدة بدون طاقة الحب الصادق، فكلما اقترب مني أحد أجد إنك من دفعته لذلك، ففقدت الثقة في كل من حولي، وأصبحت أخشى أن أخطو خطوة جديدة فأكتشف في النهاية أنها كذبة كغيرها، فأخبرني يا أبي، هل الخداع مهما كانت غايته يبني حياة؟"

-"أي بني الغاية تبرر الوسيلة".

-"بهذا المنطق لا يوجد مذنب على وجه الأرض، أما آن أوان اعتزال

ما يؤذينا؟ أليس هؤلاء من أضرموا النيران في بيتنا، فأُرغمنا على ترك موطننا بعدما ضل الأمان طريقه إلى قلوبنا، أليس هؤلاء من تسببوا في إعاقتك فطردت من وظيفتك الإضافية فذبحنا بسيف القلق والمهانة، فأخبرني ما تبقى لي كي أبني عليه حياة؟"

بعدما أرضى فضوله طرق الباب، فإذا برجل لم يعد ينتظره في الحياة أكثر مما لاقاه، نحتت الدنيا على وجهه خطوط المعاناة والمشقة بقدر ما حيا فيها، يضم يده اليمنى المرتعشة إلى صدره حيث لم يكن يقوى على بسطها، فتح الباب متلفظًا:

-"عم أمين، ماذا في جعبتك في هذه الساعة المتأخرة؟"

-"هذا المظروف أرسل عصر اليوم إلى ولدك".

أخذه ثم قرأ ما فيه بصوت خافت:"من دار النشر، نود رؤيتكم لمناقشة أمر نشر الكتاب".

"إن الموافقة على نشر كتابك استثناء لم نقم به منذ نعومة أظفار هذه الدار، فلا يخفى عن أحد إننا لا ننشر الكتب صغيرة الحجم بغض النظر عن قيمتها، فللقراء القيمة ولنا الأمور المادية لنحافظ على ريادتنا، إليك خمسة كتب من آخر إصدارات الدار ليكون التعامل القادم بيننا أكثر اكتمالًا"، كان وقع هذا الكلام على نفسه وقع النسيم في الأوار، فخرج من هذا السرح العظيم مدركًا في قرارة نفسه إنه وجد ما يبني عليه حياة ولكن...

في ظلام غرفته الدامس كقلبه المطفأ نوره أخذت أمه تربت على كتفه وتضمد يده ذات الجروح الغائرة، ثم كسرت هذا الصمت اللعين الذي هو بداية كل عاصفة هبت على أرواحهم قائلة:"لم لا تقرأ الكتب الخمسة التي اشتراها أبوك من آخر إصدارات الدار المفضلة إليك لعلها تنسيك ما يؤلمك؟"

-"أتُنسي الأمطار النبات احتياجه للشمس"، ثم استطرد كاظمًا بكائه ما استطاع:"أتدري يا أمي، إن حزني على فراق الشيخ جميل دون أن أراه منذ قرابة العام ونصف ملأ الجزء المتبقي من قلبي، الذي كنت أنتظر أن تملأه سعادة لعلها تكون بداية الغيث"، ثم استكمل ناظرًا إلى المهدئات ودواء الصداع:"ولكن جميعنا أخفق في مهمته".

نهض قاصدًا غرفته الصغيرة متوجهًا نحو الأصيص الذي لم يجد به سوى فتات محلل، فأجهش بالبكاء قائلًا:"يا صديقي نستطيع تحمل ثلاثة أعوام من الحزن، ولكن عام من الانتظار يكفي لقتل أرواحنا". ثم التقط العلبة الملقاة على الأرض وأخرج الساعة السوداء ولبسها، وحينما أبصرته أمه تبسمت قائلة:"لم تلبسها منذ أهدتك إياها في يوم ميلادك منذ ثلاثة أعوام!"

فابتسم حين رأى ابتسامة أمه التي كاد أن ينسى ملامحها وجفف عينيه قائلًا:"سأذهب لاستنشق الهواء النقي".

فقالت أمه:"ارتدي معطفك؛ فالأمطار غزيرة والبرد قارس بالخارج".
بينما ترتب سريره رمقت ورقة مطوية أسفل الوسادة ونظرًا لخفشها لم تتمكن من قراءة ما فيها، فأيقظت أباه الذي ذهل بعد قراءتها، وأخذ جبينه يتصبب عرقًا، وازدادت رعشة يده، ولكنه تظاهر بالتماسك قدر استطاعته متلفظًا:"أين ذهب أحمد؟"
فأجابته:"غادر منذ ساعة ونصف تقريبًا ليتمشى".
ترك البيت بهدوء مصطنع وحينما ابتعد عنه قليلًا أخذ يجري مهرولًا متلفتًا يمينًا ويسارًا، ولكنه لم ير سوى شرذمة من حيوانات بلا مأوى، ولم يسمع سوى هزيم المطر، فلم تتحمل أعصابه أكثر من خمسين مترًا فانحنى مرتكزًا على ركبتيه، أبصرته سلمى بينما كانت تقف في شرفتها تدعو الله أثناء هطول المطر؛ فأسرعت نحوه مفزوعة وحينما دنت منه سمعته يتهته:"لقد مات أحمد".
فجحظت عيناها وتثاقل شهيقها وزفيرها ووقعت على الأرض مغشيًا عليها.
برقت السماء مع دوي الرعد ليظهر وليس بينه وبين القضبان سوى بضع خطوات مرتسمًا في ذهنه ابتسامة أمه، التي لبس الساعة لتكون آخر ما يراه منها، تشابك يده بيد أبيه في طريقهما للمسجد في صغره، بشاشة الشيخ جميل، ووجه سلمى قبل أن

يسرقه من شرود ذهنه صفير قطار منتصف الليل، فانتفض ذارفًا دمعًا سخينًا، وشرع يتقدم لافظًا أنفاسه الأخيرة، ثم ألقى بنفسه أمامه ليدهسه ويكمل طريقه ليوقظ عم أمين.

رسالة من الله

حينما بلغت العشرين من عمري وجدت أن المقولة الأرسخ قدمًا في عقلي:"العقل السليم في الجسم السليم"، لهذا حينما مررت بمشكلة عويصة قررت البحث عن أقوى الأجساد لمساعدتي بعقولهم السليمة وآرائهم الرصينة، فذهبت إلى صالة رفع الأثقال، وهناك وجدت ما أفتش عنه من أجساد قوية، فشرعت في سرد مشكلتي بعد أن طلبت ممن في الصالة مساعدتي بطرح حلول متعشمًا في عقولهم القوية كأجسادهم، وبعد أن انتهيت بدأ الجميع إبداء الآراء والنصائح، ولكن يا لصدمتي في المقولة الأثبت في عقلي، حين وجدت بدل العقول عجول، فخرجت من الصالة كمن دق بمطرقة على رأسه، وبعد دقائق استفقت من

صدمتي قائلًا في قرارة نفسي:"إن لكل قاعدة شواذ، ولعل من كانوا في الصالة هم شواذ القاعدة"، ومن هنا اعتزمت أن أختبر مدى صحة المقولة بنفسي، وأعلم هل أنا من شواذ القاعدة أم من متونها؟

وضعت خطة لتقوية جسدي، بدأتها بالركض على الطريق الماثل أمام بيتي من بعد صلاتي للفجر لخلوه منذ هذا الوقت حتى الساعة السابعة تقريبًا، بدأت الركض في اليوم الأول ولم يكن بالطريق سوى ضباب الصباح الذي جعل مدى الرؤية أمامي محدودًا، وبعد بضع دقائق اعتراني التعب بمجرد أن بلغت بداية الكبري المكمل للطريق؛ فجلست على المقعد الأول من المقاعد الست للجانب الأيسر للكبري قائلًا في قرارة نفسي:"يا أسفي! تعبت من ركض قرابة المائة متر، الآن أدركت سبب إخفاق عقلي في تخطي المشكلة".

لم يختلف اليوم الثاني عن سابقه سوى أن الإرهاق دق باب قلبي عند المقعد الثالث؛ فجلست لأستريح ثم عدت إلى المنزل متخبطًا في خيبة أملي من هذا التطور الطفيف.

في اليوم الثالث نويت أن أستمع إلى القرآن أثناء ركضي؛ لعل الله يساعدني، فأوثقت السماعة في هاتفي المحمول ووضعته في جيبي والسماعة في أذنيّ مستمعًا للشيخ منصور السالمي، ثم

بدأت الركض إلى أن أوقفني تعبي هذه المرة عند المقعد الخامس؛ فجلست كالعادة لأستريح مطأطئًا رأسي، فرأيت محفظة ملقاة على الأرض بجانب قدمي، فالتقتها ووضعتها في جيبي وإذ بعبارة: "حتى هذا لا أقدر عليه"، تشق ضباب الصباح مصطدمة بأذنيّ؛ فنزعت السماعة واعتدلت في جلستي باحثًا عن الفم الناطق بهذه العبارة، وبمجرد أن رفعت رأسى أبصرت شابًا على يميني في منتصف العشرينات ينظر إلى الماء الجاري أسفل الكبري واضعًا يديه على السياج الحديدي وأسارير وجهه منكمشة غضبًا.

لم أكن أعلم في هذا الوقت ماذا ينبغي أن أفعل؟ والشاب مستمر في التلفظ بعبارته، إلى أن ظهر في مدى رؤيتي شيخ كبير تجاوز الستين، ذو لحية كثيفة بيضاء مرتديًا عمامة وعباءة بيضاوتين متكئًا على عصا، يشع من وجهه نور، وبمجرد أن رمق الشاب توجه نحوه ووضع يده على كتفه بلطف متفوهًا:"ماذا بك يا بني؟"، فأدار الشاب وجهه نحو الشيخ ثم أعاده حيث كان، فأمسك الشيخ بيده وتوجها نحو المقعد بجوار مقعدي ثم جلسا، فتزحزحت قليلًا حتى بلغت حافة مقعدي محركي فضولي لأتمكن من سماع حديثهما بوضوح.

تفوه الشيخ:"علام تجلد ذاتك يا بني؟"، فقال الشاب:"إليك مشكلتي"، ثم استطرد:

"مات أبي حينما كنت في العاشرة من عمري، فتحملت أمي المسؤولية كاملة، وكانت خير بديل له، حيث بلغت تضحيتها إلى رفضها عملي أنا وأخي أثناء دراستنا، فصبرت على ما يؤذيها في سبيل التحاق أخي بكلية الطب، وأنا من بعده ولذا اعتزمت وأخي وأختي الصغيرة على تعويض أمي عن السنوات القاسية التي شهدتها في سبيل راحتنا، فقضينا جل وقتنا في المذاكرة، تخرج أخي وتحمل المسؤولية بدلًا من أمي التي قد خارت قواها وتقدم بها العمر".

"بعد ذلك بثلاث سنوات تخرجت، وتزوج أخي، فكنت في غاية السعادة لتحملي مسؤولية تعويض أمي عما فاتها، ومسؤولية تعويض دور الأب حتى لا تشعر أختي بافتقاده، وخاصةً أنها أصبحت في الثانوية العامة".

بدأت العمل بكل حبور لتحملي المسؤولية التي كنت أنتظرها منذ سنوات، ولكن يا لسخرية القدر، فمات مريض أول عملية جراحية أخوضها، ومنذ هذا الوقت توقفت عن مزاولة مهنة الطب، ومن ثم توقفت عقارب ساعة حياتي، فبعدما كنت مصدر إلهام للجميع في التفوق والإرادة، أصبحت من وجهة نظر أختي مصدر للطاقة السلبية، ومن وجهة نظر أخي فاشل وضعيف، بالرغم من أن ظروفي أفضل بكثير من أي شاب في عمري، أما أمي

فساءت حالتها النفسية".
"لهذا أحاول الانتحار هربًا من ضعفي، ومن شعور تحول الحب الشديد لأهلي إلى كره وعدم ثقة، ومن فراري من ظروفي في معصية الله، ومن قسوة الحياة والذهاب إلى رحمة ربي، ولكنني لم أكن أعلم أن مسلسل ضعفي مستمر حتى في هروبي منه".
نظر الشيخ في عيني الشاب المغرورقتين قائلًا:"يا بنى كيف لك أن تشعر أن رحمة الله غير موجودة في الدنيا بل رحمتنا بأنفسنا هي الغائبة"، ثم استطرد:
"لم تبحث عن تقبل مشكلتك في أعين أهلك! وهذا ما يستحيل حدوثه مما دفعك إلى كرههم على الرغم من أن شغفك الكبير لتحمل المسؤولية جعلك لا تتقبل مشكلتك وتشعر بالذنب لمجرد وقوعك فيها، يا بني أنت لست مذنب أو مخطئ، ووقوعك في مشكلة بالرغم من طيب الظروف المحيطة ليس ضعف أو فشل منك، وإنما هناك ما يسمى بمرونة العقل في التعامل مع الظروف، تعتمد على فترة تكوينه قبل مروره بتلك الظروف، فهي ما تحدد قدرته على التعامل من عدمها، فالفيصل هنا ليس بساطة أو تعقيد الظروف وإنما تكوينك العقلي، وليس هناك ما يسمى بالعقل المرن على الإطلاق، فلكل عقل أمور لا يستطيع التعامل معها، فجميعنا أسرى لظروف فرضت علينا أثرت على عقولنا

وأفكارنا".

وبينما يكمل الشيخ حديثه مرت سيارة رثة شوش ضجيجها على كلامه فلم أسمعه بوضوح، ففكرت في حيلة حتى لا يفوتني هذا المشهد من الحلقة الأخيرة لمسلسل ذكاء وفطنة الشيخ، فأخرجت هاتفي من جيبي ونزعت السماعة وقمت برفع الصوت فسمع ثلاثتنا الشيخ منصور السالمي يقول:

"قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله".

ثم قمت بخفض الصوت مرة ثانية، وبالفعل نجحت الخطة وتلفظ الشاب قائلًا:"عذرًا أعد كلامك، فلم أستطع سماعه بوضوح، لقد شرد ذهني إلى كلام الله الذي أراحني كثيرًا"، فقال الشيخ:"على الرحب والسعة"، ثم استطرد:"عليك بتقبل مشكلتك، ولا تربط ذلك بتقبل الناس، ثم عليك بإعادة ثقتك بنفسك مرة ثانية من خلال النجاح في خطة ترسمها لنفسك تشمل الجانب الروحاني والرياضي، وإلى جانب ذلك أقترح عليك عمل قناة على إحدى مواقع التواصل الاجتماعي تشرح فيها لطلاب كلية الطب مناهجهم ودع القدر يقول كلمته".

أخذ الشاب يتلفظ بعبارات الشكر والامتنان، وبينما يتأهب كلاهما للرحيل توجهت نحوهما قائلًا للشاب:"إليك معي رسالة

حب من الله"، فأصابتهما الدهشة فأكملت قائلًا:"وكأن الله يقول: عبدي هي لحظات سخرت لك فيها كل من حولك فجعلت عبدًا من عبادي يضل الطريق ويمر بسيارته على الكبري قبل الساعة السابعة على غير العادة، وجعلت عبدًا آخر تؤرقه مقولة بسيطة ويحركه فضوله ليسمعك كلامي ويخبرك رسالتي".

ثم بعد ذلك مباشرة قال الشيخ للشاب:"إليك معي رسالة حب أخرى من الله، وكأن الله يقول:

جعلت عبدًا من عبادي يختلط عليه الأمر ويأخذ محفظته عند نزوله للصلاة ليفقدها ويعود ليبحث عنها ويقابلك ليهون عليك أمرك".

فقال الشاب بعد سماعه للرسالتين:"علام الحزن والله ربي"، ثم أخرجت المحفظة من جيبي وأعطيتها للشيخ؛ فشكرني على أمانتي وصافح كل منا الآخر بابتسامة عريضة، وعدت إلى البيت مغتبطًا بعقلي الذي بدا عليه أنه بدأ يتطور.

مسؤولية الإبداع

مدرس مادة الفلسفة محبوب من الجميع، يذهب إلى المدرسة ليقضي مع طلابه ويقضون معه وقتًا ممتعًا، المدرسة تسير على نهجها المعهود، في الصباح يقف الطلاب وعلى وجوههم علامات لا مبالاة، يقولون نشيد بلادي وفى آخر فناء المدرسة بعض الطلاب المتأخرين يعاقبهم المدير، ثم تبدأ الحصص، فالمواد مختلفة ولكن الطريقة المصطلح عليها واحدة، فالمخطئ يعاقب كي لا يكرر خطأه، حتى أن الطلاب في بعض الحصص يجلسون وقد بلغت قلوبهم الحناجر من العصا الضخمة التي تصطدم بأيديهم، وكأن سيارتين ارتطمتا، إلى أن تأتي حصة الأستاذ يوسف مدرس الفلسفة، كانت عبارة عن حلقة نقاش بينه وبين التلاميذ يتناوب

فيها الأدوار إما سائلًا وإما مجيبًا.
أول حصة في العام الدراسي الجديد بمجرد أن دخل الأستاذ يوسف الفصل سأله التلاميذ عن سر غيابه عن المدرسة السنة الماضية كاملة، فتفوه قائلًا:"سأجيب عن سؤالكم لكن ليس الآن"، ثم بدأ حصته قائلًا:"سنناقش في حصص هذا الأسبوع موضوعًا بعيدًا عن المنهج بهدف تنشيط عقولكم وإثارتها للتفكير والتمحيص"، ثم أكمل بطرح سؤال قائلًا:"لماذا يا أصدقائي تحبون اللعب وتكرهون الدراسة، على الرغم من أنه في اللعب تبذل مجهودًا عقليًا وبدنيًا كبيرًا في جو يعمه الضوضاء، أما أثناء المذاكرة فيكون أمامك مروحة أو مدفئة وفى يدك شرابًا تحبه في جو يعمه الهدوء؟"
صمت التلاميذ قليلًا، ثم قام أحدهم قائلًا:"لأننا لا نتحمل مسؤولية أثناء اللعب"، فبادره الأستاذ بسؤال قائلًا:"إن كنت لا تتحمل مسؤولية أثناء اللعب، فما الذي يطور مستواك من حين لآخر؟"، فقام آخر وتفوه قائلًا:"من كثرة اللعب"، فبادره الأستاذ أيضًا بسؤال قائلًا:"كثرة المذاكرة تجعل مستواك يتطور أم تتعود عليها وتستسهلها؟"
فأجاب:"أتعود عليها وأستسهلها، وأستغرق وقتًا أقل في إنجازها"، فصمت الأستاذ قليلًا وأخذ يتجول في الفصل ثم تكلم:"إذًا يا أصدقائي دعونا نتفق أن هناك مسؤولية تجعل مستواك يتطور

في اللعب غير موجودة في المذاكرة، أو هناك مسؤولية تتحملها في المذاكرة تجعل مستواك لا يتطور غير موجودة في اللعب أو الاثنين معًا".

ثم سأل:"هل أحد منكم يعلم هذه المسؤوليات؟"، خيم الصمت في أرجاء الفصل أنهاه جرس نهاية الحصة بتفوه الأستاذ يوسف: "النا في حديثنا بقية في حصة بعد غد الثلاثاء".

دارت الدائرة المعتادة حتى جاءت حصة الأستاذ يوسف والتلاميذ تنتظر قدومه بشغف لاستكمال الحديث، وبالفعل دخل الأستاذ يوسف الفصل بابتسامته المعهودة قائلًا:"من منكم يريد أن نكمل النقاش؟"، فقال الطلاب جميعنا:"ننتظر لنعلم ما هي المسؤوليات؟"

-"وهو كذلك"، ثم استطرد:"سأخبركم أولًا عن سر غيابي عن المدرسة العام الماضي، وأنتم ستستنبطون المسؤوليات، أنصتوا جيدًا، حينما أخبرني مدير المدرسة التي يتعلم فيها ابني محمود وابنتي أميرة برسوبهما، ووجدتهما مقبلين على اللعب الذي يتطلب منهما ذكاءً كبيرًا ومجهودًا هذا ما دعاني للتفكير".

"بعد فترة من التفكير والتمحيص قررت أن أجري تجربة، بدأتها قائلًا لهما: سأجلب لكما مدرسًا يعلمكما كيفية اللعب بطريقة صحيحة، فوافقا بابتسامة عريضة على وجهيهما، ثم أخبرت

الأستاذ سعد بالتجربة، وطلبت منه مساعدتي، فوافق ثم جاء إلى البيت وشرع يعلمهما ما اتفقنا عليه، حيث أخذ يعلمهما جميع أنواع الألعاب، فمثلًا يعلمهما بأنه إذا جاءت الكرة هنا يركلاها هكذا وإذا جاءت هناك يركلاها بطريقة أخرى".

"ثم بدأ يعلمهما أداء كبار اللاعبين في كل لعبة في جميع المواقف، ويحفظهما كل هذه القواعد، ويعاقبهما بعنف إذا اختلف تصرفهما عنها، وأيضًا الألعاب التي تنمي الذكاء قام بحلها وطلب منهما حفظ الحل، ثم أخبرهما أنه سيتركهما شهرين ليذاكرا ما علمهما إياه استعدادًا للاختبار، واستمر ذلك لمدة سبعة أشهر".

"بعد هذا تحولت الابتسامة التي كانت على وجهيهما إلى عبوس تام"، وبينما يتأهب الأستاذ يوسف ليكمل كلامه دق جرس الفسحة، فقال كعادته:"لنا في حديثنا بقية في حصة غدًا الأربعاء".

في اليوم التالي دق جرس نهاية الحصة قبل حصة الأستاذ يوسف؛ فاغتبط التلاميذ منتظرين قدومه، ولكن دخلت عليهم الأستاذة جميلة مدرسة الرسم وقالت:"إن الأستاذ يوسف تغيب عن المدرسة اليوم لأنه مريض"، فحزن التلاميذ وبعد المدرسة ذهبوا إلى بيته لزيارته فشكرهم على ذلك وأخبرهم بأنه سيكمل النقاش في حصة يوم الخميس التي سيحضر فيها بعض الأساتذة والمدير كعادتهم.

أتى يوم الخميس وجاء موعد الحصة؛ فدخل الأستاذ يوسف ومعه المدير والأستاذة جميلة والأستاذ إبراهيم مدرس الكيمياء، ثم جلسوا مع التلاميذ وأكمل الأستاذ يوسف الحديث السابق قائلًا:"بعدما أحس محمود وأميرة بالضجر، وتحولت ابتساماتهم إلى عبوس تام، وجدتهما يومًا أرادا أن يلعبا كما كان قبل قدوم الأستاذ سعد، ولكن خشي كلُ منهما أن ينسى ما علم ويرفض الأستاذ اختلاف طريقته فيرسب وينجح أخوه".

"بعد ذلك أقبلا على المذاكرة وقراءة الكتب التي رسبا فيها بطريقتهما الخاصة دون أي تدخل مني، إلا إذا طلبا المساعدة، فأصبح ترفيههما يجدونه في المذاكرة وبعد شهر كانت الامتحانات قد أزفت فأخبرتهما بأنهما سيخوضانها، فوافقا واستكملا المذاكرة وبالفعل دخلا الامتحانات وحصلا على مراكز متقدمة".

"الآن هل أحد منكم يعلم ما هي المسؤوليات التي فرضت عليهم في اللعب فكرهاها أو المسؤوليات التي وجداها في المذاكرة فأحباها؟"، صمت الجميع فقال الأستاذ يوسف:"سأخبركم"، ثم استطرد:"فالمسؤولية التي وجداها في المذاكرة تجدونها أنتم في اللعب هي مسؤولية الإبداع دون قيود، أما المسؤوليات التي فرضت عليكم في المذاكرة وعلى محمود وأميرة في اللعب، مسؤولية الخوف من الفشل في الضوابط التي فرضت عليكم، مسؤولية

التنافس غير العادل مع الآخر، وكأنه حكم على عقولكم جميعًا أنها متماثلة ففرضت عليكم الطريقة وفرض عليكم الوقت، مسؤولية الجنون، حيث أنك تتنافس مع عقلك لتقيده بالطريقة المفروضة عليك، والتي بها فقط ستتفوق وعقلك يرفضها؛ لأن فطرته الإبداع وهذا ما يجعلك تبذل مجهودًا أكبر في المذاكرة، والنهاية المحتومة لذلك طلاب ناجحون بضوابط خاطئة، معقدون نفسيًا أو طلاب فاشلون أيضًا معقدون نفسيًا".

- سأل الأستاذ إبراهيم:"وما هي ضوابط الإبداع؟"

-"أن تعطيه المطلوب إنجازه وهو له الحق في إنجازه بطريقته الخاصة التي تناسب عقله والوقت الذي يكفيه ما دام سيتقنه إتقانًا تامًا".

- فقال المدير:"إن ما جعل محمود وأميرة يكرهان اللعب هو الأستاذ سعد، أما نحن في المدرسة فلدينا أكفأ مدرسين".

-"كيف تطلب الإبداع من مدرس دارت عليه نفس دائرة قتل الإبداع في نفس المدرسة وبنفس الطريقة؟"

ثم أكمل الأستاذ يوسف قائلًا:"إن طلابنا في المدرسة وأندادهم في مدارسنا الأخرى لديهم أفضل عقول، ولكنهم بمجرد دخولهم المدرسة نأخذ من عقولهم الإبداع ونلقي به في الأجداث، فدعونا نحرر هذه العقول"، في هذا الوقت دق جرس نهاية اليوم الدراسي،

فقال:"الآن أصبحت عقولكم جاهزة لبداية منهج الفلسفة"، ثم قال المدير:"أعدك أن آخذ كلامك بعين الاعتبار وأفكر فيه"، فشكره الأستاذ يوسف وعاد الجميع إلى البيوت بعد خاتمة دراسية ممتعة.

فشــلك نجــاح

مجموعة من الصقور تعيش في غابة مع طائفة من الغربان، كانت الصقور تتبارى في تحليقها عاليًا مما يجعل المسافة بينها وبين فرائسها كبيرة، لذا كانت تلقى الكثير من المشقة والتعب في اصطيادها والعودة مرة أخرى للتحليق، كانت تفترس الأسماك والزواحف والثدييات نهارًا والغربان السوداء ليلًا، ولذلك كانت تجد مكابدة كبيرة في الحصول على هذه الغربان على الرغم من قوة بصرها مما كان يزيد من إرهاقها وينال من قوتها.

حينما أتى موسم التزاوج أنجبت هذه الصقور ونظرًا لما تلقاه من مكابدة في الحصول على فرائسها كانت تجلب لصغارها طعامًا

غير كافٍ، بدأت الأمهات تنقل لصغارها ما توارثته ممن سبقوها فتعلمهم كيفية التحليق، وأن شموخ الصقر في تحليقه عاليًا ويستمر ذلك لمدة ستة أسابيع حتى يكتمل للصغار شكلها المميز والنهائي وعادتها الفريدة وتبدأ في الاعتماد على نفسها.

من بين هؤلاء الصغار صقر له بقعة حمراء أعلى رأسه، كان مختلفًا عن باقي الصقور، يسأل نفسه دائمًا لماذا يتقيد بكل هذه المعايير التي ليس لها أهمية مثل التحليق لمسافات كبيرة والتنافس مع باقي الصقور في ذلك؟ ولماذا يصطاد الغربان السوداء ليلًا ما دام يستطيع اصطيادها نهارًا وافتراس الزواحف والأسماك والثدييات ذات الألوان التي يمكن تمييزها ليلًا؟

وكان يخرج للصيد مع صاحبه الحميم وكان دائمًا ما يطرح عليه هذه الأسئلة ويسُاله أيضًا قائلًا:"لماذا كل صقر يسعى لتمجيد نفسه دون غيره بمقاييس أظن أنها خاطئة؟"، وصاحبه لا يكترث بكل هذه الأسئلة وهو مستمر في التفكير وطرح الأسئلة في هذا الصدد.

حينما أتى دورهم في التزاوج أنجبوا صغارًا آخرين، واتبعوا نفس النهج المعهود في توارث صفاتهم وعادتهم، هنا وجد صاحب البقعة الحمراء تفسيرًا لكل أسئلته، فعندما وجد صغارهم أضعف منهم وهم أضعف ممن سبقوهم حتى أنهم أخذوا أكثر من

ستة أسابيع في الاعتماد على أنفسهم، علم أن معايير عصره كلها خاطئة، فقرر أن يثور عليها ويبني لنفسه معايير أخرى للنجاح، حيث أساس هذه المعايير انتماءه لوطنه.

في اليوم التالي وجدت الصقور صاحب البقعة الحمراء صدف عن عاداتهم بطيره بالقرب من فرائسه وعدم تحليقه عاليًا؛ فاستنكروا جميعًا فعلته واتهموه بالفشل والضعف لكنه لم يحفل بذلك وقرر أن يستأنف ما بدأه، بعد أيام وجدته الصقور يفترس الغربان نهارًا فاحتجوا على ذلك وبدأوا في مضايقته، ولكنه أزمع أن يتحمل ما يؤذيه ليثبت صحة معاييره.

حينما علم صاحبه بذلك رماه هو الآخر بالفشل والخور وتَرَكَه وحيدًا، فكان ذلك بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير وهنا رفع رايته البيضاء واستكان لفكرة كونه فاشلًا وحبس نفسه في سجن الوحدة والأحزان حتى وهنت قوته واعتراه الهزال، متعجبًا لماذا اختلافه عنهم يؤذيهم إلى هذه الدرجة واستمر على ذلك الحال طويلًا دون أن يلتفت إليه أحد.

عندما علمت جماعة الغربان بذلك عرضت عليه أن ينضم إليهم ليس كفرد عادي ولكن كقائد لهم، هنا وجد نفسه أمام أمرين أولهما أن يستمر في استسلامه لضعفه ورغبته عن الحياة حتى الموت، وثانيهما أن يتخلى عن أساس معاييره لفترة مؤقتة يثبت

فيها لجماعته صحة هذه المعايير، ولعله يجد في بيئة الغربان ما يعلمه للصقور، بعد تفكير عميق اشترط على الغربان أن في حال نجاحه معهم سيعود إلى وطنه مرة ثانية، وافقت الغربان ولكن اشترطوا أن في حال فشله معهم فسيقتلونه.

انضم إلى جماعة الغربان فوجدهم يعيشون في جماعات إيمانًا منهم أن الكثرة تهزم الشجاعة وبنوا أعشاشهم بعيدًا عن أعشاش الصقور، فكانوا يذهبون لجمع الفرائس نهارًا لأنهم يعلمون أن الصقور لن تفترسهم، ثم يعودون إلى أعشاشهم ليلًا لأنهم أيضًا يعلمون أن الصقور تقضي كل حياتها في موطن واحد فلن تغادره وتنقض عليهم ليلًا.

بدأ الصقر يعلمهم كيفية الافتراس بقوة والتحليق عاليًا ونوعية الطعام اللازم كي يصبحوا أقوياء كالصقور، ثم بدأ يعلمهم بعض معاييره للنجاح ونظرًا لما تتميز به الغربان من سرعة التعلم أصبحوا يتمتعون بقوة الصقور وذكاء قائدهم صاحب البقعة الحمراء، وسرعان ما اعترفوا بمعاييره الجديدة وجعلوها أسلوب حياتهم.

بعدما كانت الصقور ترى الغربان وكأنها بقع سوداء لا قيمة لها حتى أن القدر لم ينصفها في لونها أصبحت تراها وكأنها غمامة سوداء تحجب عنهم رؤية أهدافهم وفرائسهم، وبعدما لاحظوا

كل هذا التغيير في قوة الغربان انتابهم الشك في أن معايير صاحب البقعة الحمراء صحيحة.
بعد ذلك طلب الصقر أن يعود لوطنه بعد نجاحه ولكنه توقع خيانة الغربان؛ فكتب رسالة للصقور أخفاها في ريشه، وبالفعل اعتزمت الغربان قتله لأنهم تيقنوا أن تقدم جماعة الصقور خطوة بمثابة تأخرهم مائة خطوة، فتجمعوا عليه وقتلوه بلا رحمة ثم تسللوا خلال أعشاش الصقور وألقوا جثته.
في اليوم التالي بينما يخرج صديقه من عشه ويبدأ التحليق رأى جثته فكان ارتياعه شديدًا، توجه نحوه وأخذ يهز جثته باكيًا متفوهًا:"كنت أود رؤيتك يا صديقي كي أعتذر لك ولكن يا لسخرية القدر فلم أرى سوى جثتك"، ثم استطرد صارخًا موجهًا رأسه نحو السماء:"سامحني يا صديقي"، ثم أبلغ باقي الصقور بموته، فتجمعوا ليدفنوه فوجدوا الرسالة التي كتب فيها قائلًا:
"كل من قصر دفع ثمن تقصيره، فأنتم دفعتم ثمن رفضكم لاختلافي عنكم، وأنا دفعت ثمن ضعفي وتأثري بهذا الرفض تأثرًا شديدًا، ولكن المستفيد الوحيد هي جماعة الغربان، فترى هل ستستمر هذه الدائرة حتى نصبح نحن غربانًا والغربان صقورًا وتذهب ريحنا للأبد أم سنظل نحن صقورًا والغربان غربانًا، وتعلموا أن الناجح في منظومة معاييرها خاطئة يعد فاشلًا، والفاشل في

منظومة معاييرها صحيحة يعد ناجحًا".

شبح الخوف

عمر طالب عرف بحسن الخلق والتفوق، يذهب إلى المسجد بجوار بيته في كل صلاة، ويستمع وأخوه محمود الطبيب وأبوهما إلى حديث شيخ المسجد بعد صلاة العشاء يوميًا، ثم يذهب لصديقته ليذاكر معها، وبعد ذلك يعود إلى البيت ويجلس مع والديه ومحمود وأخته الصغيرة زينب، وتعلو أصواتهم بالضحكات متسامرين ثم يخلدون جميعًا للنوم.

استمرت هذه الحياة البسيطة، فالوالدان فخوران بابنيهما المشهود لهما بالخلق وبسطة العقل والتفوق، محمود مغتبط بعمله الذي ابتغاه، عمر جذلان بعلاقته بربه وصديقته ومدرسيه، زينب تحظى بقدرٍ جسيمٍ من السعادة التي تملأ أرجاء البيت.

في يوم ما بدا على عمر القلق فسألته أمه:"ما بك يا بني؟"، فأجابها:"لقد اقتربت الامتحانات وأخشى أن أقل عن مركزي المعتاد، كما إنني فقدت متعتي وانجذابي للصلاة"، فاحتضنته أمه واجتلبت مصحفًا ونصحته بقراءة القرآن.

في اليوم التالي لم يذهب إلى صلاة العشاء، ومن ثم لم يستمع إلى حديث الشيخ لأول مرة منذ أن تعلم الصلاة، فظن الجميع أنه مريض وسيبرأ غدًا.

بينما أبوه في طريقه إلى عمله قابله أحد مدرسيه وأدراه بأِنه لم يعد يذاكر وإذا استمر هكذا فسيرسب هذه السنة، غادر المدرس واستكمل الأب طريقه وعلى وجهه علامات الحيرة عن سبب هذا التغير الجذري في حال ابنه، وبعدما أنهى عمله ذهب إليه وسأله عن سبب تخليه عن مسؤولياته وعن سبب حزنه الشديد، وعمر لا يجيب ملتزمًا الصمت.

ذهبت أمه إلى صديقته وسألتها عن سبب حزنه فأجابتها قائلة: "لا أعلم، فهو لم يعد يأتي للمذاكرة معي، ولكنه في المرة الأخيرة التي قابلته فيها كان غريب الأطوار، كان سريع الغضب وسرعان ما كان يرتفع صوته على غير عادته".

بعد شهور من الصمت التام ذهب إلى أمه وأخبرها أنه كلما يتأهب للمذاكرة أو الصلاة يظهر له شبح يخيفه، فاحتضنته

وحينما عاد أبوه من عمله أخبرته بذلك فأخذه إلى شيخ القرية فقرأ عليه قرآنًا ورقاه.

استمر الحال كما هو ولم تُجد محاولة الشيخ، فذهب أبوه للشيخ مرة ثانية فقال له الشيخ:"أنا في لبس أن عمر يكذب على غير عادته ليبرر فشله، لأنه لا يجوز أن يظهر شبح في المسجد أو أثناء الصلاة".

اكتظت أرجاء المنزل بالتعاسة والحزن فجميع أبناء القرية يجتازون سنة بعد سنة وعمر جاثم في مكانه دون حراك، وكأن ما به صخرة لا تستطيع أهدافه تفتيتها.

في يوم ما عرض محمود على أبيه أن يأخذ عمر إلى صديقه فهو طبيب نفسي ممتاز لعلهم يجدون حل اللغز عنده، وافق الأب وسرعان ما ذهبوا إليه، جلس مع عمر طويلًا وبعدما أنهى جلسته سأله محمود عن تفسيره فقال:"لم يمر علي حالة كهذه من قبل، ولكن لا تيأسوا فسيشفى بإذن الله".

استمر الطبيب في التفكير مليًا، في يوم ما سافرت أخته مع زوجها وطلبت منه أن يأخذ كلبها ليعتني به إلى أن تعود، أخذه وأدخله في حديقته الرحبة فانطلق الكلب ولكن حينما دنا من القفص الذي كان يبيت فيه كلبه قبل موته لزم مكانه وانقطع نباحه.

تعجب الطبيب من ذلك وأخذ يتابعه عن كثب فوجده مستمرًا في انقطاعه عن الأكل والنباح رغم أن فصيلته عدائية، كما أنه ليس مريضًا، فاتصل بأخته ووصف لها حال الكلب ثم سألها: "هل كان يفعل ذلك بحديقتك؟"، فأجابته قائلة:"على النقيض تمامًا، فقد كان كثير النباح، مفرط النشاط، حتى أنني كنت أعاقبه إذا ارتكب سلوكًا عدائيًا تجاه أحد بحبسه في قفص مظلم"، أنهى الطبيب المكالمة مبتسمًا وأدرك أن ما يسيطر على الكلب إنما هو شبح الخوف.

ذهب إلى عمر مسرعًا وجلس معه في غرفته وقال له إن ما تراه إنما هو شبح الخوف ثم استطرد قائلًا:"خوفك الشديد من الله يدفعك لترك عباداته أو الإلحاد، خوفك الشديد من فكرة الفشل يجعلك تستسلم لها، خوفك الشديد من فراق من تحب يجعلك تقسو عليه، خوفك الشديد من أن تظهر بصورة سيئة في أعين الناس يجعلك عبدًا لهم"، ثم استطرد:

"يا عمر لا تسمح لنفسك بأن تغريك بالمثالية فتتقيد بأصفاد الخوف المفرط، إليك نصائحي التي ستتبعها ولا تيأس على ما فاتك، صل لتشعر بالراحة وقرب الله منك، وليس من أجل أن تُثاب أفضل ثواب، ذاكر لتشعر بجمال ونفحة الاجتهاد وليس لتكون الأفضل، عامل الناس بالحقيقة واللين وهم أحرار في

حكمهم عليك".
بدأ عمر العمل بنصائح الطبيب وبعد فترة ليست بقصيرة من الصراع النفسي أشرقت شمس خوفه من المغرب، هنا علم أن شمسه أشرقت من مشرقها واستعادت نفسه المكدودة رونقها وحيويتها، وبعد سنوات من التصالح مع نفسه عمل سفيرًا ودرس الفقه وأصبحت القرية كلها تزدان به كما كان سابقًا، وعلم أن للفشل قيمة لا يدركها إلا الناجحون.

نضـــــال

محمود ونضال صديقان منذ الطفولة، تخرجا في كلية التجارة معًا، نضال يعيش مع أمه وأخيه محمد، الذي يدرس في المرحلة الإعدادية، وأخته التي تصغره بسنة، مات أبوه قبل تخرجه، محمود يعيش مع أمه وأبيه المريض بالسرطان.

أخذ محمود ونضال يفتشان عن وظيفة لفترة طويلة دون جدوى، استمرا في البحث طويلًا إلى أن جاء صديق أبويهما الذي يعمل بالخارج لزيارة أبي محمود المريض وعرض عليهما وظيفة في البنك الذي يعمل فيه قائلًا:"من منكما يريدها فليعطني ملفه ويتأهب للسفر خلال يومين".

طلب نضال من محمود أن يسافر لأن أباه في حاجة شديدة

للدواء، وافق محمود وتعاهد مع صديقه أن يبحث عن وظيفة له ليكونا معًا كما اعتادا دائمًا.
بدأ محمود العمل وسرعان ما أرسل مالًا لوالديه ولكنه لم يكن كافيًا لمعيشتهما ولدواء أبيه، ما زال نضال مستمرًا في محاولات البحث عن وظيفة، ولكن باءت جميعها بالفشل كالعادة، لذا كانت أمه تبيع كل يوم بعضًا من أغراض البيت ليستطيعوا العيش دون طلب المساعدة من أحد.
عرض أحد الجيران على نضال وظيفة عامل في المصنع الذي يعمل فيه، وافق نضال مجبرًا وبدأ العمل بنفس منكسرة حزينة على سنوات دراسته.
كان دخل الوظيفة محدودًا لا يفي لمعيشة أسرة نضال وتعليم محمد، لذا أرغموا على إخراجه من التعليم، حزن نضال لذلك لأنه كان متفوقًا، لذا خيمت التعاسة في أرجاء البيت وفى نفس نضال خاصة.
استمر نضال في الاطمئنان على أم محمود وأبيه قبل الذهاب إلى عمله وبعد أن يعود، ثم يبدأ في البحث عن وظيفة، ومحمود يعمل بجد ثم يبدأ هو الآخر في البحث عن وظيفة لصديقه.
مرت السنوات وكأنها علقم يتجرعه الاثنان دون أي تغيير حتى كاد سهم اليأس يصيب نضال حين وجده محمد في غرفته باكيًا

بشدة فقال له:"يا ابن أمي الجأ إلى من جعل في ضيق حالنا حكمة ولا تأس إن الفرج قريب بإذنه"، بعدها قام نضال وصلى حتى هدأت وسكنت روحه فنام.

في اليوم التالي وكأن الدعوة ضلت طريقها في السماء تقدم شاب لخطبة أخته فرفضه لضيق الحال، وهنا بدأ صخر اليأس يتراص حول قلبه حتى أحكم قبضته عليه فتفاقم في جسده جرح الاستسلام؛ فأقبل على المخدر ظنًا منه أن فيه دواء لجرحه ومهربًا من همومه، ولكن على النقيض ساءت حالته أكثر وضاق حالهم ووهنت قوته ورغب عن الحياة وأصبح مفرق النفس كارهًا لها.

في هذا الوقت إذ بغتةً يترك أحد أصدقاء محمود عمله في البنك، فعرض محمود على مدير البنك ملف نضال فوافق على إعطائه الوظيفة، فرح محمود وبينما يوشك أن يرسل إلى نضال ليسافر له تلقى هو رسالة من محمد كتب فيها:"عد سريعًا لأن أباك قد اشتد عليه المرض وصديقك على وشك الموت".

بمجرد أن قرأ محمود الرسالة عاد سريعًا إلى بيته واطمأن على أبيه، ثم توجه إلى صديقه ليبلغه بنفسه ما أراد أن يسمعه من سنوات، حينما اقترب من البيت وجد أناسًا كثيرين يكتنفونه ورأى كفنا خارجا منه فأصابه الفزع، وحينما رآه محمد أسرع نحوه واحتضنه وأخذ يبكي بشدة قائلًا:"مات صديق عمرك يا محمود".

أجهش محمود بالبكاء وأخذ يتذكر صديقه الحميم وهو يدافع عنه ويتعارك لأجله ويتذكر وهما يتسامران ويضحكان معًا، ويتذكره وهو يصلى وكأنه ملك من السماء ويتذكر ضحكته البريئة، ثم حمل كفنه وسار ونهر ينهمر من عينيه ثم دفنه بيده.
بعد ذلك عاد محمود مع محمد إلى البيت وقبل يد أم نضال ثم سأل محمد:"ماذا حدث؟"، فأجابه باكيًا:"لقد أقبل على تعاطي المخدر بشراهة حينما اضطر إلى إخراجي من التعليم ورفض من تقدم لخطبة أختي، فحينما دخلت عليه وجدته ساجدًا في غرفته فعندما أطال في السجود خفت عليه فدفعته بيدي فوقع على الأرض وقد وافته المنية ودموعه على خديه وبجواره هذه الرسالة". بكى محمود قائلًا:"الآن علمت لم ترك أحد الموظفين عمله فجأة، فبسجدة واحدة يفرج الله الكرب".
أخذ محمود الرسالة فقرأها ووجده كتب فيه قائلًا:"يا صديقي كن خير بديل لي وهون على أمي وإخوتي وادعو لي لعل الله يرحمني".
مرت أيام قليلة ولم يرحم القدر محمود فمات أبوه فحزن بشدة، وأوشك على الاستسلام لولا أن محمد ذهب إليه وقال:"يا من أوصاك أخي علينا لا تستسلم لشيطانك ولا تكتب بيديك نهاية الأسرتين معًا".

بعدما سمع محمود هذا الكلام قرر أن ينجح في اختباره وعاد إلى عمله نشطًا وأخذ يعمل بجد وينفق على الأسرتين، ثم ترقى في وظيفته فأعاد محمد إلى التعليم وتزوج من أخت نضال، وهنا وجدت البسمة مكانًا على وجه الأسرتين.

بعد سنوات دخل محمد كلية الطب وتخرج منها وتخصص في مجال الطب النفسي لعلاج الإدمان، وكتب على عيادته الخاصة لافتة تقول:"يا صديقي، أيعقل أن تعطي مالًا كل يوم لشخص ليضربك حتى الموت، استعن بالله واحذر فخ الفضول أو فخ اليأس، فإن وقعت في أحدهما فقد قال القدر كلمته وهذه ليست النهاية بل هي بداية قصة جديدة أبطالها الإرادة والثقة بالله والنفس"، وأخذ يحمل مرضاه بعد شفائهم أمانة الدعاء لأخيه نضال.

الثقة بالنفس

أميرة وبسنت أكثر الطالبات تفوقًا وذكاءً، كلتاهما في فصل واحد، أميرة تجلس في الصفوف الأمامية مبتسمة دائمًا متجاوبة مع جميع مدرسيها وزميلاتها، أما بسنت فتجلس في الصفوف الخلفية منطوية على نفسها تكاد لا تتكلم طيلة اليوم الدراسي.

تتابعها بسنت دائمًا بنظرات كنظرات المتفرجين على الخوارق في السيرك تارة، ونظرات الأختين المتعاركتين تارة أخرى.

في يوم ما ذهبت أميرة إليها وسألتها عن سر متابعتها لها بهذه النظرات المتناقضة؟

فتفوهت بسنت:"هل من الممكن أن أتحدث معك قليلًا بعد انتهاء يومنا الدراسي؟"

-"بالطبع يا صديقتي".
بعدما انتهى اليوم الدراسي توجهت أميرة نحو بسنت وجلست بجوارها قائلةً:"تحدثي كما تشائين".
-"أتعجب منك كثيراً يا أميرة، فبالرغم من أنك سمينة ولست جميلة إلا أنك دائما مبتسمة غير مكترثة بتهكم الآخرين، وتأتين كل يوم المدرسة بنشاط وحيوية لو وزعا على جميع الطالبات لتبقى منهما الكثير!"
- ابتسمت أميرة قائلةً:"هل يمكن أن تأتي معي البيت قليلًا يا بسنت؟"
-"بالتأكيد على الرحب والسعة".
ذهبتا معًا إلى البيت وبمجرد أن فتحت أميرة الباب أسرعت قطة برتقالية اللون نحوها ثم قفزت وألقت بقدميها الأماميتين على كتفي أميرة وأخذت تداعبها، ثم نزلت وألقت بنفسها في دلو مملوء بالماء بعد ذلك قفزت منه وأخذت تتقلب على منشفة ملقاة على الأرض ووفدت نحو أميرة مرة ثانية، ابتسمت بسنت لذلك وحينما ألقت بنظرها في نهاية الغرفة التي أمامها رمقت قطة بيضاء أجمل بكثير من القطة الأخرى بالكاد تهز جسدها وكأنها كرة يداعبها الصبا.

بعدما قبلت أميرة خد أمها أمسكت يد بسنت ودخلتا غرفتها ثم أغلقت الباب قائلة:"عندما سألت أبي لماذا لا تخاف القطة البرتقالية وتملأ البيت حيوية ونشاطًا خلاف القطة البيضاء التي يتملكها دائمًا الخوف من الجميع".

"فقال: لأن القطة البرتقالية جعلت ثقتها بنفسها مشروطة بما تملك من رشاقة وعيون جميلة، ثم تحاول أن تملك المستطاع مما لا تملك، فتلقي بنفسها بالدلو لتبدو نظيفة وجميلة، أما القطة البيضاء فجعلت ثقتها بنفسها مشروطة بما لا تملك من أيدي تبطش بها وجسد كبير يحميها.

فالقطة البرتقالية أدركت أن معظم القطط جميلة حتى أن كثرتها تمنعها من جلال التفرد، أما هي فوجدت تفردها في إدراكها المستطاع من غير المستطاع، وفى ثقتها بنفسها وعدم خوفها من أحد".

ثم استطردت:"كذلك أنا يا بسنت، جعلت ثقتي بنفسي مشروطة بما أملك من فصاحة اللسان وتفوقي وعلاقتي بربي وموهبتي في كتابة الشعر، وأحاول قدر المستطاع أن أخسر بعض الوزن دون الخوف من عدم نجاحي في ذلك".

"ولا أعترض على الهيئة التي خلقني الله بها، تقول أمي دائمًا أن الله أعطانا ما نملك وحرمنا مما لا نملك، لأن من قدرت لنا

السعادة على يديه يبحث عما نملك ولا يبحث عما لا نملك".
فقالت بسنت:"معك حق يا أميرة، فينبغي علي أن أجعل ثقتي بنفسي مشروطة بما أملك من تفوقي وموهبتي في العزف، وأحاول قدر المستطاع أن أخفف وزني دون أن يؤثر ذلك على حياتي".
ابتسمت أميرة قائلة:"لقد فهمت ما أردت أن تفهميه وبداية من غد ستجلسين بجواري في الصف الأمامي متجاوبة مع الجميع بسعادة وحيوية".
-"وهو كذلك يا صديقتي، وشكرًا على سعة صدرك".

حينما ترى القلوب

فى متاهات الصحراء لا صوت يعلو فوق صوت الرياح تحك رمالها , يتحدث متلعثماً عبراللاسلكى" على بعد خمسة كيلومترات , لم يبقَ على قيد الحياة سواى والجندى محمد" وإذا برصاصة مجهولة المصدر تصيبه ويسقط أرضاً

بعد عامين

المثل إلى مثله ساكن ومؤازر لذا لم تتعامد الشمس على الأبراج السكنية المونقة على جانبى الطريق ولا على المتاجر ذات الصيت الواسع والأسماء الرنانة ولا على السيارات الفارهة وإنما على العينين الناعستين اللّتين فقدا نورهما لفتاة فى منتصف العشرينات تسير على الرصيف باتزان المبصرين ويدها تتشابك مع يد فتاة فى

السابعة من عمرها كانت بمثابة عين ترى بها إلا أنها ترفع يدها الأخرى قليلاً لتسبق جسدها وكأنها بمثابة العين الثانية , بعد سيرهما قرابة الخمسين متراً من ناصية الشارع التى لم يكن بينها وبين شاطىء البحر سوى طريقين مختلفى الإتجاه تفوهت ذات السبعة أعوام" عائشة لقد وصلنا"

شاب ضرير يقف على منصة وسامته أصبحت كاللبن المسكوب وسط هؤلاء المكفوفين بالقاعة تفوه قائلاً" نبدأ كعادتنا منذ عام بقواعد المؤسسة , هنا أنت إنسان دون الحاجة إلى بياناتك الشخصية سواء عمرك , ديانتك , وظيفتك أو غير ذلك , هنا فقط نكون سعداء بما نستطيع أن نحققه ومن لديه القدرة على المساعدة لا يضن بها , لا يدخل هذه القاعة سوى فاقدى البصر والأطفال" ثم استطرد" اليوم لدينا وافد جديد جرت العادة على سؤاله عن أكثر شيء افتقده بعد فقد بصره"

تلفظت ذات العينين الناعستين" كم افتقدت سيرى دون اصطحاب أختى ودون أن تسبق يدى جسدى لا إرادياً , كم أشتاق إلى القراءة على شاطىء البحر وقت الغروب , كم أتوق إلى اختلاف حين أغمض جفنى , كم أشتاق إلى حياة حقيقية ليس لأن ما زال يوجد أنفاس تدخل وتخرج" , أبكم حديثها كل من بالقاعة كمداً حتى قطع هذا الصمت قائلاً" لا تغادرى بعد نهاية الجلسة" ثم

استطرد مبتسماً" حان وقت الحديث عن الأمنيات فى بداية العام الجديد" , استمر التناوب على الكلام لمدة ساعتين وبينما يتأهب الجميع للمغادرة تفوه" ما دمنا معاً سنحقق كل ما تمنيناه كالعام الماضى"

أمسك باقة الورود البيضاء الوحيدة وسط باقات الورود الحمراء على المنضدة ونزل من على المنصة وتوجه نحوها قائلاً" استطيع أن أرى أنك لم تغادرى"

تحدثت مبتسمة" وكيف ذلك؟"

-إن كان للأجساد عيون فللأرواح قلوب ترى ثم استطرد" إليكى هذه الباقة من الورود البيضاء"

-يا لها من مصادفة جميلة , فأكثر ما أعشق من الورود هى البيضاء

-هكذا يكون الحال حينما ترى القلوب ثم استكمل مبتسماً" سنكون فى انتظارك الإسبوع القادم دون إجبار أختك على المكوث وسط مكفوفين لا يمكنهم أن يحيوا حياة حقيقية مثلها كما تزعمين"

غادرت وكأن قلبها عاد ينبض من جديد فلأول مرة منذ أن فقدت بصرها تشعر بانتعاشة رئتيها عند استنشاقهما الأكسجين , بالسكينة عند سماعها اصطفاق أمواج البحر, تحس بأن النسيم

مكلف بابتسامتها وأصبحت تتيقن أن الله لم يصطفيها بالعمى إلا لترى

بينما تتوارى الشمس تدريجياً خلف منتهى مد البصر من البحر كانا يجلسان القرفصاء متلامسى الدالية على الرمال الدافئة للشاطىء , يلتف طرف كوفيته حول رقبته والطرف الأخر حول عنقها , زاحم صوته اعتلاج الأمواج قائلاً" قد حان وقت المفاجئة"

-أتمنى ألا تكون كسابقتها فلن نعبر الطريق مرة ثانية , سنعود من نفق المشاة

-تفوه مبتسماً" لن نكررها لأنك وثقت بقدرتنا على الرؤية وأصبحت تشعرين بالأمان من مصدره وليس من حركة يدك , أليس كذلك" ثم استطرد" لكن أعدكِ أن مفاجئة اليوم ستجعل ابتسامتك تدوم أكثر من فترة تسارع دقات قلبك فى المرة السابقة" ثم أردف" لقد حفظت سماعياً لأجلك رواية أخر الزمان بمساعدة صديقى لمدة شهرين"

تهللت أسارير وجهها متفوهة" أنت أجمل من رأى قلبى"

ابتسم قائلاً" عليك أن تتخيلى حين أسرد أحداث الرواية أن فمى هو عينك الخارقة التى يمكنها القراءة فى الظلام ثم استطرد" تبدأ الرواية بمقولة أكثر الأوقات فتنة تمر بها الأمم حين ينتهج رافعى راية الحق أسلوب الباطل فى محاربته والقضاء عليه"

وبعد ساعتين من دوام ابتسامتها واستمتاعها بالرواية غادرا متفقين على الاستكمال بعد نهاية الجلسة القادمة.
تفاقمت ظلمة من بالقاعة مدة صمته على المنصة جالساً على كرسى مطأطئاً رأسه , دموعه تتبارى فى الخروج من عينيه , أنهى ظلمة الصمت قائلاً" اليوم هو الأخير لمؤسسة قلوب ترى" ثم استطرد" قبل أن يصطفينا الله بالعمى كان الحب عندنا أسيراً لأعيننا وقبل دخولنا هذه القاعة كان أسيراً لإختلافاتنا من ديانة أو انتماء أو غير ذلك , أما الآن أصبحنا قادرين على تحرير الحب واختبار مدى صدق قلوبنا لذا سأسافر إلى انجلترا غداً لإجراء عملية جراحية لعينى أجلتها منذ عامين لأنى أدركت حينها أن الحياة الحقيقية ستكون داخل هذه القاعة بظلمتها , أما الآن صارت الحياة بقلوبنا وأصبحنا قادرين على أن نحب فقط من أجل الشعور بالحب لذا سأبدأ بنفسى مخترقاً القواعد أنا أبانوب , فى أواخر العشرينات من عمرى , كنت ضابط بالجيش المصرى تبعه الجميع فى الإدلاء ببيانته الشخصية وحينما أتى دور عائشة كانت قد غادرت بعينين مغرورقتين وقلب منكسر حيث آثرت ظلمة الصمت على نور الكلام الجارح , انتهت الجلسة بوداع الأحبة وداعاً حاراً وتناقض فرحهم بنور الحياة الحقيقية والأسى على فراق من هداهم لهذا النور

توجه نحو الشاطىء وقت المغيب بإحباط ويأس لم يعتادا المكوث فى قلبه منذ سنوات , جلس بجوارها متقاسمين كوفيته كالعادة ثم تفوه متأوهاً" لقد فهمت ما دفعك للمغادرة , فهذا الأمر كان كثيراً ما يؤرقنى لكن هذا ليس عدلاً"

قالت شاحب وجهها منكمشة أساريره" إن كان يجب ألا يكون الحب أسيراً للعيون و الإختلافات فلا ينبغى أن يكون مكبلاً بأصفاد علاقة غير مقدر لها بالاكتمال"

شابك يده بيدها وبعد صمت لم يدم طويلاً تفوه" أنا مدين لكما بالكثير" ثم أردف

" فى لظى الصحراء وتزايد ألهبة النيران تناقص الأكسجين تتقاسمه أنوف لأجساد تزهق أرواحها , فلم يكن على قيد الحياة سوى الجندى محمد مصاباً برصاصة فى ذراعه أما أنا فكنت على وشك الاحتضار وبالرغم من أنه لايدق بالعقول سوى ناقوس الخطر و لا يزيد ضربان القلوب سوى الخوف والاختناق و لا يرتسم بالوجدان سوى نفسى نفسى إلا أنه لم يتركنى وحملنى على كتفه قرابة الخمسة كيلومترات ليتم إنقاذى ولكنى لم أرى بعدها سوى ظلام دامس , حينما أخبرونى بما حدث أدركت أننى لم أكن أعمى سوى قبل أن أفقد بصرى وبعد ذلك التقينا لتجعلى مدى الرؤية أمامى أوسع"

تفوهت" أنا أيضاً مدانة لك" ثم استطردت" كان شغفى بكل تفاصيل الحياة قد اختنق فتمزقت روحى وظننت أن ليس للحياة سوى وجه عابس وقبيح إلى أن التقينا أدركت أن للحياة ابتسامة قادرة على رتق الروح دون ترك أثر لذا إن كنت لا تمانع أن تعطينى كوفيتك كذكرى لوجه الحياة البشوش لعلى لن أراه مرة ثانية"

افترقا بعدما جن الليل وبينما كانت المسافة بينهما بالكاد تسمح بتبادل نظراتهما تفوه رافعاً صوته" ألن تخبرينى باسمكِ؟"

أجابت مبتسمة" فى اللقاء القادم حين تعود لأخذ كوفيتك واستكمال الرواية"

رحلة الكُرْه من الفضيلة إلى الرذيلة

بعد أن ذرأ الله النفس خلقت الأخلاق الحب وأسكنته فيها، مرت الأيام والحب في النفس وحيد حتى عاد إلى الأخلاق قائلاً:" كيف أكون مصدر قوه وضعف النفس في ذات الوقت؟"

-فسألته الأخلاق وكيف ذلك؟

-مصدر قوتها في حبها لله وضعفها في حبها للأشياء الزهيدة ولنفس مثلها وانشغالها بهذا الحب عن حبها لله

-كان وقع هذا الكلام على نفس الأخلاق وقع الصاعقة لذا تلفظت فى ارتياع" إذاً سأخلق الاعتدال"

-ما هو الاعتدال؟

-الوسطية بين الزيادة والنقصان.

عاد الحب إلى النفس ومعه الاعتدال بكل حبور وما هي إلا أيام حتى وفد إلى الأخلاق مرة ثانية متخبطاً في خيبة أمله قائلاً:" لقد ساء الوضع أكثر فبالرغم من أن النفس اعتدلت في حبها لنفس مثلها والأشياء الزهيدة إلا أنها اعتدلت في حبها لله أيضاً"

ذهلت الأخلاق ثم قامت بتخليص النفس من الاعتدال وخلقت الاحترام وأسكنته في النفس محله.

عاش الحب مع الاحترام في النفس أملاً تغير وبالفعل لاحظ أن النفس احترمت مقام الله الذى لا يضاهيه مقام ووجدت الاعتدال في حبه الزيادة، واحترمت إدراكها قيمة مقام نفس مثلها مقارنة بمن خلقها فوجدت الاعتدال في حبها الوسطية، واحترمت إدراكها تكريم الله لها بخلقه إياها فتنزهت عن الرذائل، واحترمت إدركها حقارة الأشياء الزهيدة فوجدت الاعتدال في حبها الكره.

فخلقت الأخلاق الاعتدال بمفهومه الصحيح والكره كفضيلة.

أستمرت النفس هكذا إلى أن كره الكره كون الحب الأرسخ قدماً في النفس،حيث يذكر أمام الأشياء الجليلة أما هو فيذكر أمام الأشياء الزهيدة.

وإذا بالكره بغتةً يجعل النفس تكره ما يجب أن تحب فأرغم الحب على جعل النفس تحب ما يجب أن تكره ليضمن مكاناً فيها وهنا وجدت الرذائل النفس مثوى مناسباً لها،بعد ذلك ظل

الإثنان يقوما بنفس الفعلة تباعاً
ومن هنا بدأ الصراع السرمدي بين الحب والكره، ثم امتلكت النفس القدرة على أن تقول كلمتها وتحدد مصيرها.



تواصل معنا :

01067000701

E-mail -: Fasla .Pub@Gmail .com

Facebook .Com/Fasla .Pub